المحاضرة الثامنة:توظيف التراث في الرواية العربية.

1-تعريف التراث:

1-1-المدلول اللغوي لكلمة تراث:

ترجع كلمة تراث في أصلها اللغوي إلى الجذر -ورث- ودلت في معاجم اللغة العربية المشهورة على معنى المال الذي يورثه الأب لأبنائه وقد وردت في القرآن الكريم في سياق قوله تعالى" وتأكلون التراث أكلا لما" -سورة الفجر الآية 19- ودلت على المعنى نفسه الذي ورد في معاجم اللغة، أي المال وما شابه ذلك، والتراث بحسب مدلول الآية هو كل ما تركه المتوفى وراءه لمن بعده من ورثته.

وفي ميدان العلوم العربية الإسلامية المختلفة مثل الأدب وعلم الكلام والفلسفة والفقه فلا نكاد نعثر على وجود كلمة تراث والمؤكد أن لا كلمة تراث ولا كلمة ميراث ولا أيا من المشتقات من مادة ورث قد استعمل في العلوم القديمة في معنى الموروث الثقافي بحسب المعنى الذي نعطيه لكلمة تراث في خطابنا المعاصرون إذ إن الموضوع الذي تدل عليه هذه الكلمة ومشتقاتها في الخطاب العربي القديم كان دائما يخص المال وأما شؤون الفكر والثقافة فقد كانت غائبة عن المجال التداولي لكلمة تراث ومترادفاتها.

1-2-المدلول الاصطلاحي لكلمة تراث :

لم تستعمل كلمة تراث بمعناها الاصطلاحي إلا في العصر الحديث، حيث دأب كثير من الدارسين على استخدامها حتى غدت كلمة شائعة في الخطاب العربي المعاصر، ذهب كثير من الدارسين إلى تعريف التراث بأنه موروث فكري وثقافي تراكم خلال الأزمنة من التقاليد والعادات والتجارب والخبرات وعلوم وفنون شعب من الشعوب، وهو جزء من قوامه

الاجتماعي والخلقي، يوثق علائقه بالأجيال العابرة التي عملت على تكوين هذا التراث وإغنائه وهذا المفهوم يشمل كل مقومات التراث.

وقد عرف الجابري التراث بقوله):الجانب الفكري في الحضارة العربية الإسلامي: العقيدة، الشريعة، واللغة والأدب والفن والكلام والفلسفة والتصوف أما نعيم اليافي فقد ميّز بين نمطين من التراث هما:

1- تراث تماشى وتوافق مع العصر الذي نشأ فيه وانقضى بقضائه.

2- تراث توافق وتماشى مع الإنسان وهو مستمر إلى الوقت الراهن.

ومن التعريفات السابقة يمكن إجمال التعريف التالي: التراث هو الموروث الثقافي والاجتماعي والمادي، المكتوب والشفوي، الرسمي والشعبي، اللغوي وغير اللغوي الذي وصل إلينا من الماضي القريب أو البعيد.

2-دوافع توظيف التراث:

الظاهرة التراثية في الأعمال الفكرية والأدبية ظاهرة كثيفة الحضور ولا تستأثر بها أمة من الأمم عن غيرها، والسبب هو أن التراث يشكل خزانا نفسيا وثقافيا لدى الأفراد والجماعات الإنسانية دون استثناء، وتتجلى آثاره وبصماته على الماضي الذي يستمر تأثيره في حاضر الإنسان ووجوده فهو الامتداد الأصيل لذلك الماضي الموصول بحبل سري خاص مع الحاضر من خلال مسيرة متصلة بتجاوز الراهن نحو المستقبل.

إن عودة الأديب أو المفكر أو الفنان إلى التراث ومحاولة الاقتباس والإفادة منه لا تعد انكفاء أو نكوصا وإنما هي إضاءة إضافية وتعميق لرؤيته الفكرية أو الإبداعية وإحساس عميق لديه بضرورة الخلق والتشكيل والتطوير، وهنا لا يمكن النظر إلى التراث بوصفه يشكل حالة استلاب لقضايا الراهنة، كما لا تعد عملية توظيفه حالة اغتراب فيه على ما يجهر به بعض المعارضين للتراث الذين يحملون لواء الغرب والجديد فكرا وثقافة وعلما.

ومن الأسباب أو الدوافع التي جعلت مبدعينا يعودون إلى التراث، والتي يمكن إيجازها في الآتي:

1-دوافع فنية:

تمثلت في الإحساس الكبير بثراء التراث والبحث عن مواطن الجمال الفنّي والإبداعي وتفْجير منابع تنوع التراث وغِناه ومحاولة استغلال هذه الإمكانات للخروج من إطار الجزئية والذاتية والاندماج في الكلي والمطلق والشمولي والموضوعي.

2- دوافع نفسية:

أصبح الشعور الإقلاع من جديد ضرورة نفسية مُلِحَّة بعد معاناة طويلة مع الجمود والرداءة، فالنهوض الفكري يمثل بالنسبة للعربي عنصرا مناعيًا ضد عقدة التخلف والنقص ولا خير من تراثنا كمنطقة أمان واطمئنان على عكس" الانبهار "بالآخر الذي كان يمثل ثقافة الخوف.

3-دوافع ثقافية حضارية:

تمثلت في التأثير الكبير لحركات إحياء التراث في الأدب بشكل عام حيث أدرك الأدباء أنّه بات من الضروري الانتقال من مرحلة التعبير عن الموروث إلى مرحلة تمثله وحضوره والبحث عن النمذجة الفنية الحاضرة في التراث الغائبة في الراهن للاستفادة من مخزونه في نقل التجارب المعاصرة ويعود ذلك إلى تأثر الأدباء بدعوة الشاعر الإنجليزي "ت.س إليوت " الذي نادى بضرورة ارتباط الشاعر بماضيه وموروثه.

4- دوافع سياسية:

التحرر من الخطاب السياسي الأجنبي بعد نكسة 1925 ،" فالآخر "كان يعني التبعية، وعلى هذا الأساس كان البحث عن هوية سياسية ضرورة لتشكيل هوية فنية وثقافية، كما أصبحت الشخصيات التراثية قناعًا للتّستر خلفها لتجنب الصدام مع السلطة.

3-تجليات التراث في الإبداع الروائي العربي:

نشأت الرواية العربية في مطلع العصر الماضي متأثرة بالغرب وبقيت الرواية العربية تدور في فلك الرواية الغربية طيلة عقود ولكنها بعد ذلك أخذت تقطع صلتها بها شيئا فشيئا وتكف

عن تقليدها وأخذت تبحث عن أصالتها وهويتها عن طريق العودة إلى التراث القصصي والسردي الخاص بشعوبهم والإفادة منه في البناء العام لرواياتهم.

والواقع أن توظيف التراث في الرواية العربية اخذ مسارين اثنين:

-الأول: يقوم على توظيف التراث الشعبي أو تراث البيئة المحلية.

-الثاني: يقوم على استلهام التراث بشكل عام.

ولم يلتزم الروائيون خطوطا فاصلة بين المسارين في أعمالهم الروائية ولكن ما ظهر جليا هو أن التراث خضع في توظيفه عند هؤلاء لاعتبارات وأهداف متعددة هي انعكاس للصراعات الفكرية والأيديولوجية في العالم العربي وانعكس ذلك على البناء الفني للرواية العربية أيضا على رؤية الكتاب وموقفهم من التراث.

بقي الخط السردي التقليدي هو السائد في الأعمال الروائية العربية ولكن ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين اخذ عدد قليل من الروائيين العرب مهمة استكشاف الإمكانات الفنية التي تتوفر عليها الأشكال السردية التراثية، وظهرت عديد من الأسماء التي أخذت على عاتقها مهمة تصوير البيئة المحلية من أمثال نجيب محفوظ في رواياته: القاهرة، خان الخليلي، أولاد حارتنا، عبث الأقدار، عبد الرحمان منيف في رواية مدن الملح، الطيب صالح في رواية عرس الزين، أيضا أعمال محمود المسعدي، حنان الشيخ، جمال الغيطاني.....

المراجع:

-عقيلة سالم فرج خليفة، محمد أحمد القضاة: توظيف التراث في روايات إبراهيم الكوني، مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، ع34،2014.